سنين كل ما يحصله ابناء الفرنسيس والانكليز كما ثبت بالاختبار فاذا كان فينا مبدأ الاستقلال والابتكار وجب ان لا نقصر عنهم في ميدان الحياة بعد ذلك . ولا ننكر ان احوالهم غير احوالنا ووسائطهم غير وسائطنا وبذلك نعذر بعض العذر ولكنّ الانسان المستقل ليس عبدًا لاحوالهِ ووسائطهِ بل سيد عليها . واذا لم يلقَ ابن المشرق ما لقيهُ كوخ من امبراطوره فقد لا يكون نصيبهُ اسوأ من نصيب لافوازيه الذي مات شهيدًا واستشهادهُ لم يُضعف عزائم الاوربيين عن متابعة البحث والاكتشاف . على اننا قد بلغنا والحمد لله زمانًا نبتدأ فيهِ نرى من يعرف قدر الرجال وننهم ولنا الامل الوطيد ان ذلك يزيد شيئًا فشيئًا . فعسى ان يكثر بيننا المستقلون ويقلّ المتابعون

اسرار المتوحشين

التديُّن صنة عامّة لجميع طوائف الناس ولكنهم مختلفون في ذلك اختلافًا عظيمًا من الكثيري السنن الشديدي الوَرَع الى الذين لا سنّة لهم وليس عندهم من الديانة الاّ شبه اعتقاد بخالق غير معروف وهم اكثر سكان الاوقيانوس الباسيفيكي ومنهم سكان جزائر ملاناريا وقد عُرف بالاستقراء ان هؤلاء الشعوب الذين لا سنن لهم ولا شعائر دينيّة ولا كهنة يقومون بها قد استعاضوا عن الكهنة والشعائر الدينيّة بطرق سريّة ورسوم خفيّة لا يطّلع عليها الاّ المنتظمون في سلكها . وقد أُتيح لاحد الاميركيين ان اطّلع على اسرار اهالي بريطانيا الجديدة ووصفها في العدد الاخير من جريدة العلم العام الاميركيّة وصفًا ترتجف منهُ الفرائص وتهلع لهُ القلوب ويستدلّ منهُ على عظم سلطة الوهم في النفوس فاقتطفنا منهُ ما يأتي

قال يحدث في احد الايام قبل ان يتفرّق الناس الى اعمالهم المختلفة ان يُسمَع صوت منادٍ يقول دكدك دكدك فيسرع الرجال الى السلحهم ويقفون في ابواب بيوتهم ويركض النساء والاولاد ويختبئون ويستولي الخوف والرعب على كل احد . ثم يخرج من الغاب رجل قد غطى بدنهُ كلهُ بالقصب والهشيم حتّى لا يظهر منهُ الاّ رجلاهُ وارتفع القصب فوق رأسهِ نحو خمس اقدام في شكل مخروطي ويسمى الدكدك فيعدو على قدميهِ راقصًا بين جميع بيوت القبيلة وكلما وصل الى باب بيت التفت الى صاحبهِ فاذا رآهُ واقفًا مسلحًا تركهُ وظلّ

عاديًا راقصًا الى ان يمر على جميع بيوت القبيلة وكلما مرَّ على رجل مسلَّح ذهب الرجل وراءهُ راقصًا الى ان يسير وراءهُ جميع رجال القبيلة وهم مشرعون الرماح او راقعون النبابيت . واذا مرَّ على رجل ليس واقفًا في باب بيتهِ مسلحًا فإما ان يرفع هذا الرجل يديهِ ويشير بهما اشارات مخصوصة فيجتاز الدكدك والرجال المسلحون عنهُ ويمشي هو في مؤخرتهم واما ان لا يرفع يديهِ وحينئذٍ تتناوش الرماح والنبابيت بدنهُ فيقع يختبط بدمائهِ ويدوس الدكدك على بدنهِ ويلطخ رجليهِ بدمهِ ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة ولا بين الكبير والصغير فانهم كلهم قد يقعون فريسة لهذا الوحش الضاري بل اذا شاء ان يهلك واحدًا من الذين يعرفون الاسرار والاشارات اخذهُ على غفلة فترشق الرماح عليهِ قبل ان يتمكن من رفع يديهِ . واذا كان فتى يراد ضمهُ الى الطريقة وإطلاعهُ على اسرارها وقف الدكدك امامهُ راقصًا فيتبعهُ اثنان من الجمع ويقفان عن جانبيهِ ويرفعان ايديهما عنهُ فيتركهُ الدكدك ويسير في طريقهِ اما هذان الرجلان فيأخذان الفتى الى مكان منفرد في الغاب ويجول الدكدك بين بقيَّة البيوت ويقف اخيرًا امام بيت شيخ القبيلة ثم ينطلق بالجمهور الذي تبع خطواتهِ الى الغابات حيث يجد الفتيان الذين أُخذوا اليها

والغرض من هذا العمل كلهِ اخراج هؤلاء الفتيان لاطلاعهم على اسرار طريقتهم السريَّة وان شئت فقل ديانتهم ولكنهُ لا يقتصر على ذلك بل تهرق بهِ دماء جميع الذين لم يقوموا بواجباتهم او اراد الدكدك الانتقام منهم لسببٍ من الاسباب

وحينما يصلون بالفتيان الى الغابة يوغلون فيها الى ان يصلوا الى ساحة فسيحة فيدخلونها ويسدون الباب وراءهم ويضيقون حلقتهم رويدًا رويدًا ثم يكفون عن الرقص ويجلس الشيخ في مكان معين لهُ ويقف الدكدك وراءهُ ويقف الفتيان المرشحون لمعرفة الاسرار في وسط الحلقة والرجال الذين انقذوهم يقفون بجانبهم . ثم يدنو الدكدك من كل واحد من الفتيان على حدتهِ فيرفع الفتى يديهِ ويشير بالاشارات المعلومة وحينئذٍ يقول الشيخ لمختبرهُ فيتقدم الرجلان اللذان اغاثاهُ ويوقفانهِ بجانب جدار من جدران الساحة ويبعدان عنهُ قليلاً ثم يرشقهُ كلٌّ منهما برمحهِ فيخرج الرمحان من يديهما كانهما صاعقتان ويقعان في الجدار عن جانبيهِ تمامًا حتَّى يكادا يمسا جسمهُ فاذا تحرك يمنةً او يسرةً خوفًا منهما رأى الدكدك ذلك واشار الى الحضور فسددوا رماحهم كلها نحو الفتى ورشقوهُ بها فيقضي عليهِ حالاً . واما اذا لم يجد لا يمنةً ولا يسرةً عندما رشق بالرمحين الاولين فيؤتى بهِ الى امام الشيخ ويقف الرجلان عن جانبيهِ ويبد كلٍّ منهما نبوت ثقيل فيومئ الشيخ اليهما وللحال

يرفعان نبوتيهما ويضربان الفتى فاذا احتمل ذلك من غير ان تبدو عليهِ علامات الالم فقد تمّ امتحانهُ فيؤخذ الى مكان آخر في الغابة

وحينما يكبر الفتى ويبلغ من المراهقة يخبَرانهُ لا يصير حرًّا بل يبقى عبدًا ما لم يوجد اهلاً للمكاشفة بكل اسرار جماعتهِ فيمضي الى الشيخ ويتوسل اليهِ ليطلعهُ على اسرارهم فاذا اراد الشيخ ان يجيبهُ الى ذلك عيّن لهُ رجلين خبيرين باسرار الطريقة ليعلماهُ اياها فيأخذانهِ الى مكان منفردٍ في الغابة ويأمرانهِ ان يبني لنفسهِ كوخًا ويصطاد ما يحتاجهُ ويعلمانهِ امورًا كثيرة مدة شهرين من الزمان ثم يقولان لهُ اننا قد علمناك كثيرًا مما يجب ان تعلمهُ لتصير رجلاً وتشاركنا في معرفة اسرارنا وما بقي يعلّمك اياهُ شخص آخر يأتيك حينما يريد فيجب ان تقيم في هذا المكان ولا تبارحهُ ولا تنام ولا تأكل ولا تكلم احدًا حتّى يأتي ذلك الشخص ويُباح لك اليوم ان تأكل ما شئت ولكنّ الطعام الذي تأكل منهُ اليوم يحرّم عليك في مستقبل حياتك فاختر لنفسك الطعام الذي لا يجوز لك ان تأكل منهُ في ما بعد وكُل منهُ قدر ما تريد لانهُ قد تمرُّ عليك ايام كثيرة بدون طعام ولا شراب. فيأكل ويشرب ثم يُخرج الرجلان كل ما في الكوخ ويسدان بابهُ بحصير يخيطانهِ بهِ وينصرفان ويقيم الفتى في كوخهِ ذلك اليوم كلهُ وهو ينتظر معلمهُ الجديد ويمضي النهار الاول والليل والنهار الثاني وليلهُ بدون ان يأتي. كل ذلك وهو جالس بلا اكل ولا شرب ولا نوم ولا شيء يقيهِ حرّ النهار او برد الليل وبينهُ وبين الطعام والشراب والمأوى حاجز ضعيف ولكنهُ اقوى من الابواب الحديدية. حتّى اذا انهكهُ الجوع والعطش والارق وخارت قواهُ كلها جاءهُ الدكدك بثوبهِ المخروطي من القصب والهشيم المزوّق فاذا اظهرَ الخوفَ ضربهُ ضربة قضت عليهِ وانما اظهر الجلَد علّمهُ الاشارة التي يعرف بها جميعُ المنتظمين في تلك الطريقة وسمّاهُ اسمًا جديدًا وارسلهُ الى بيتهِ وامرهُ ان لا يخبر احدًا بما سمع ورأى بل ينتظر الامتحان الاخير فاذا احتملهُ كشفت لهُ كل اسرار الطريقة

فيمضي الى بيتهِ ويخبر الناس عن اسمهِ الجديد ويأكل ويشرب وينتظر يوم الامتحان الاخير وهو يوم طلوع الهلال ولا يعلم ذلك غير المطلعين على اسرار الطريقة والمبتدئين فيها. ويجب ان يسبح السمك في صباح ذلك اليوم على وجه الماء فاذا سبح على عمق لم ينع الامتحان فيهِ بل تأخر شهرًا آخر

وفي يوم الامتحان يأتي الدكدك الى المحلة فيتقدّم الشاب اليهِ ويشير الاشارات المطلوبة

ويأخذه المرشدان ويدخلان به الغاب ويريان في طريق كثيرة المتعاريج الى ان يصلا به الى بيت كبير محاط بالاشجار من كل ناحية حتى لا يرى منه شيء وحوله سور قائم له باب واحد فيدخل الرجلان ويتركانه عند هذا الباب ثم يخرج رجل آخر ويأمره ان يدخل بعد ان يعهد ان لا يبوح لامرأة ولا ولد ولا لاحد بشيء مما يرى ويسمع والا خدمة فقدر ويدخل الباب فيجد الدار امامه مملوءة برجال قبيلته وهم بالسلاح الكامل فيزحمونه ويدعونه باسم الجديد ويهنئونه لانه جاز كل درجات الامتحان . ثم يؤتى به الى باب البيت فيرى الدكدك واقفاً في صدر البيت وامامه شيخ قبيلته وتفرز من نخبة رجالها قعود على الارض فيسلم بنون ورمح ونبوت وقناس ويؤمر ان يستعمل هذه الاسلحة بمسالة الكي يحق له الجلوس داخل البيت مع الذين فيه . ثم يرفعون ترنيمة انصلت اليهم من اسلافهم ويبتدئ الوقوف في الدار صوت الترنيم وهم لا يفهمون شيئاً مما يقولون

ويوصى ان يعلم الناس بوجود ارواح شريرة تترصدهم في النهار والليل وانما هو غلا يعتقد الا بوجود روح واحدة وهي روح النار المتقدة في المراكين . ومتى أتيح له الجلوس مع النفر الجلوس في البيت يخبر انه لا يوجد ارواح شريرة لا في النار ولا في غيرها ولا يوجد شيء غير منظور يخشاه . وكل ما يزعمون به الجمهور انما هو وسائط للتسلط عليهم

رسائل النيل [1]

الرسالة الاولى من القاهرة الى الواسطة

حييت ايها النيل المبارك فلكم جنى الانسان منك من الخيرات ولكم حملت بقوق ظهرك من الجواري المنشئات . من ايام الفراعنة الاولين الى ان خاضت عبابك بواخر المتأخرين تستحثك تيارك وتستضعف اقتدارك . ولقد كانت سفن الاولين للعبة الجنود وحقد الخزانة وكان زمامها مسلماً اليك والى الرياح العواصف والما بواخر المتاخرين فاخضعت بما بنيت له حمل السياح ورجال البحث والاكتشاف الذين يتناطرون الى هذا القطر عاماً بعد عام لمشاهدة آثار ملوكك الاولين وما كانوا عليه من العز والسؤدد . وقد جمعت في هذه

(١) نشرت هذه الرسائل في المقطم اولاً وقد رأينا ان نثبت هنا ما فيها من الامور التاريخية والعلمية ونضيف اليها ما تم الفائدة به من الرسوم والاشكال والشرح التاريخي